

في بلاد لينينيه

الحكم على كشاف!

للكاتب الروسي الشهير «باتليمون رومانوف»

PANTELEIMON ROMANOV

تعريب : إيزاك موسى شموش

« لعل الأدب الروسي أقرب الآداب إلى البساطة ، وألصقها بالحياة ؛ فهو مثال صادق لما تزخر به النفس البشرية من عواطف وميول ، وصورة طبق الأصل لما يجري لك ولي ، ولجميع الناس في كل يوم ، بل في كل ساعة ، وفي كل دقيقة ... وإليك نموذجاً من هذا الأدب الحي ، الذي بلغ من الكمال غاية ما بعدها غاية ... إليك قصة بسيطة ، لحادث بسيط ، يقوم له الكشافون ويقعدون ، وأين؟! ... في روسيا بلاد الحب ، والاباحية ، والحرية المطلقة !!!

وإذا علمت أن الأدب الروسي من أرقى الآداب الحية ، وأن واضع هذه الأقصوصة (باتليمون رومانوف) من كتاب الطبقة الأولى فيه ، وأن « الحكم على كشاف » من أجمل ما كتب ، علمت أي أثر ننقله إلى قراء العربية »

(المغرب)

اكتشفت فرقة الكشافة ، في إحدى قرى الملحقات اكتشافا مروعا: الشاب (اندرية تشوكونوف) ، يسعى في إفساد أخلاق إحدى رفيقاته (ماريا كولوييف) فتولى المحققون البحث عن الجاني ، لتطهير المجتمع من العناصر الفاسدة التي تسربت إليه من حيث لا يشعر . وكان الشعب يذهب في قدأ أخلاق الشيبة مذهبا يتدرج من الشديد إلى الأشد ، حتى انه لم يتردد في الحكم على الناشئة ، بأنها أخذت تندهور في مهاوى الفساد ، بحيث أصبحت لا تعرف كيف تميز بين الخير والشر ؛ والحقيقة التي لامراء فيها ، أن هذا النقد يرمى الشيبة بالبحود والالحاد ، والتمرد على الدين !!!

وقرر الكشافون ، في اجتماع عام عقده ، أن يتخذوا جميع التدابير اللازمة ، وإن بلغت منتهى القسوة والصرامة ، لردع اندرية تشوكونوف وأمثاله عن هذه المفاسد ؛ ولا غرو

فالشاة الجرباء تعدى القطيع بأجمعه ... ولهذا بشوا العيون والأرصاد لمراقبة تشوكونوف مراقبة سرية دقيقة ، ومما زاد في فظاعة جرمه ، أن ماريا فلاحه ، تقطن في ضاحية لا تبعد عن القرية أكثر من كيلومتر واحد ، وما الذى يعمده الفلاحون في فرقة الكشف إذا بلغهم هذا الحادث؟؟ ...

وقد تحقق لديهم أنه كثيراً ما كان يتنزه برفقتها في حديقة القرية ، ويرافقها إلى دارها بعد مضي شطر كبير من الليل ...

بدأ التحقيق يوم الخميس مساء ... وكان اندريه وماريا يتأخران عادة وفي مثل هذا اليوم من كل أسبوع ، في ردهة النادى ... إذن فقد كان محتملاً أن يرافقها عند عودتها إلى منزلها.. وفي هذا اليوم بلغ حماس الكشافين أقصاه حتى انهم لم يرفعوا أبصارهم عن اندريه وصديقه ، وكان اندريه في الخامسة عشرة ، لا يرى إلا وسترته على كتفه ، وشعره الأشعث الجاف قد تشعث بصورة لا تلتزم جانباً واحداً من رأسه ، بل تسترسل إلى جميع الجهات ، حتى إذا تضايق منها ، سرحا إلى الوراء بمشط صغير كان لا يفارق جيبه أبداً ، وكانت تغشى وجهه سحابة من الشحوب دائماً ، وكانت البثور المنتثرة فيه ، تزداد يوماً فيوماً ... وكان يميل إلى الوحدة والانعزال ، ولا يرى إلا متزويهاً في طرف من أطراف الفناء ، يواظب على دروسه وهو يذرع الساحة بقدميه طويلاً وعرضاً.

أما ماريا فانها تبدو أكثر طهارة ، وأجلى براءة : هي فتاة هادئة ، مفكرة ، لما تتجاوز الربيع السادس عشر من حياتها ، وكانت تربط شعرها برباط احمر ، وتلتفح (بلنعة) حمراء ... إلا أنها بدلا من وضع مشط في شعرها ، كانت تهز رأسها إلى الجهات الاربع ، لتصلح ما تشعث منه ، حتى إذا أعيأها جمع تلك الشعور التي عبث بها شفار المقص ، استعانت على ذلك بمشط ذى انحناء .

وفي مساء هذا الخميس ، بعد انتهاء العمل ، تصنع اثنان من الكشفاء (عهد اليهما بالتحقيق) البحث عن قبعتهما ، منتظرين خروج تشوكونوف وماريا ؛ إلا أن الفرقه بأسرهما ، كانت على أشد ما تكون من الرغبة ، للوقوف على ما يتناوله التحقيق ، فراحت جموعهم تتدافع أمام المدخل ، هامة متسارة ، واشترأت الأعناق تحاول أن تتطلع إلى البهو ، لترى ما يجري فيه ... وفجأة ، أتى أحدهم بحركة تقييد « أنها » يتأهبان للخروج ، فهرب الجميع مسرعين ، وأخذوا يتسابقون إلى الشارع تاركين الباب بين مفتوح ومغلق ... ليشاهدوا عن بعد ، ما يحدث في ذلك المدخل ... وظهر اندريه وماريا على عتبة الباب ... وفي ذلك الظلام الشائب ، أبصروا اندريه يتقدم إلى الجسر الخشبي الملقى على طرف النهر ، ويمد يده ليساعد ماريا على اجتيازه ، فتمكن من كنفها ، وتكى عليه ...

فزهر الحققان سترتيهما اللتين كان الهواء يتلاعب بهما ، وأخذا يشيعان هذين الشبحين المتباعدين بأبصارهما .

أما الكشافون ، فقد أثر فيهم هذا الجو المشيع بأفاس التآمر والفساد ، ولم يشعروا بحاجة إلى الرقاد ، لأنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودة الحققين ، ليقفوا منهما على نتيجة التحقيق . جلس الشبان والشابات حول الطاولة ، وشرعوا يتجاذبون أطراف الحديث بصوت خافت ، ويعمدون إلى الصمت كلما مر الرئيس بقربهم ، إذ لم يكن بينهم من يرغب في إطلاعهم على ما شاهدوه بأعينهم ؛ قبل أن ينتهي البحث ويتم التحقيق .

وفي الساعة الحادية عشر ... عاد الحققان فهرع إليهما الكشافون ، وتقدمت إليهما جوعهم متسائلة : هل تحققت الظنون ؟؟

أما الحققان فقد اتبذا أحد أطراف الطاولة ، وطفقا يلتهان طعامهما صامتين !!!
وقد صرحا ، أنهما لن يقولوا شيئا قبيل يوم المحاكمة .

هناصرخ أحد الرافعة : هل انتهيتما من تمثيل دور « الأحمق » ؟
فقالا نيقولا كوشونوف أحد زعماء الفرقة : كلا أيها الرفاق! لهما كل الحق في التزام جانب الصمت ، إذ ماداما قد عينا رسميا ، يتحتم عليهما التكم ، وليس يستحسن أن يجيبا كلا منا على سيل استئلته الجارف !

خفتت الاصوات ، والتف الكشافون في حلقة حول الحققين ، بينما كانا يزدردان الطعام بجشع وشبهة ... وراحوا ينتظرون بصبر فارغ قرار المحكمة التي ستلتئم يوم الاحد المقبل ، للنظر في دعوى اندرية .

ومنذ الفجر هاج النادى ، هياج الخلية إذا أخذ منها العسل ، وإذا الكشافون تتدفق جوعهم ، وتندافع في كل جهة ، بدون عقل ، وبلا إدراك ، يكاد يلثمهم التأثر ويفقد صوابهم . تناولوا الشاي جميعا بسرعة ، ومن ثم راحوا يتسابقون إلى غرف النوم ليشرعوا منها على قاعة المحكمة .

ولما نودى على تشوكونوف — وهو لا يعرف ما يراد به — تناولت إليه الاعناق ، واتجهت إليه الابصار ، وكان رئيس المحكمة قد جلس وسائر الاعضاء إلى طاولة في وسط القاعة .

نادى رئيس المحكمة : تشوكونوف ! فانتصب على رجلبيه واقفا ، من حيث لا يشعر ، إلا أنه لم يلبث أن أحس بحمرة الخجل تلهب وجهه ، عندما جذبه رفيقه الجالس إلى يمينه ، من كفه ، ليجلسه ...

— الكشاف اندريه تشوكونوف متهم بافساد أخلاق رفيقته في الفرقة : ماريا كولوييف .

فصرخ اندرية ووثب على مقعده وهو يقول: ماذا؟ ثم راح يدير الطرف حوله، ويهز كتفيه، فقاطعه الرئيس بإشارة من يده قائلاً:

— سنسمع بعد برهة قصيرة، كل ماتقدمه لنا من الأدلة لتبرير موقفك! والتفت الرئيس إلى جهة النافذة، حيث كان اللغطيشتد، وترتفع جلبة الاحاديث الخاصة، وصرخ بصوت مرتفع:

— أيها الرفاق! أطلب إليكم السكوت!

وكان تشوكونوف لا يبرح جالساً وسترته على كتفه، ويشاهد ما يجري ويسمع ما يقال، ولكن ماذا يعنيه كل ذلك وأي علاقة له به؟

قال الرئيس: اضطررنا ملاحظات بعض الرفاق للتحقيق في هذه القضية، وقد جاءت المعلومات المستقاة تؤيد بصورة جازمة تلکم للملاحظات الفردية... والآن اسمحوا لي أن أسأل الرفيق تشوكونوف.

وشد الرئيس شعره براحة كفه، وأخذ يفكر في الاسئلة التي سي طرحها ثم قال:

— ولكن، كلا!... سأقرأ لكم في بادئ الامر ما يتضمنه هذا التقرير الذي رفعه الرفيقان اللذان عينتهما الفرقة لمراقبة اعمال تشوكونوف، إليكم نصه:

« في الساعة العاشرة، بعد اجتماع النادي، ذهب الرفاق ليرتدوا معاطفهم وقبعاتهم، فتصنعنا البحث عن قبعاتنا، لنراقب عن كسب كل شيء...

خرج تشوكونوف وماريا، ولما هممت بارتداء معطفها، حمل لها جزدانها والحقيبة التي كانت تحملها لدارها، وكانت مملوءة دقيقتاً اشترته من الكوبيراتيف...

رافقها إلى شمال المدرسة، ولما اجتازا الساقية، مد لها ذراعاً فاكأت عليه كما تنكى الفتيات،

وظفقت تحتاز الاخشاب التي تكاد تشبه الجسر... واستأنفا سيرهما، ولم نستطع أن نتقرب

منهما اكثر من ذلك، خشية أن يشعرا بنا، ولهذا لم تتمكن من استراق ما كان يدور بينهما

من الحديث، إلا أنا نكاد نكون على يقين، أنهما كانا يتحدثان عن الشعر، ولسنا ندري إذا

كان يتحدثان عن شعره هو، أم ينشدها لشعراء معروفين... وحمل لها حقيبتها، وتواريا عن

الظارنا بين اشجار الغاب المتكاثف، مدة ليست باليسيرة، وتعذرت علينا مراقبتها، لاسيما

وأن الظلام كان حالكا.. وبعد ذلك أبصرناها تستأنف سيرها وحدها، ورأيناها يعود دون

أن يشعر بنا، ونحن بين الاعشاب مخبئون! »

— أرايتم أيها الرفاق؟ القضية واضحة! نحن هنا بصدد سيرة لا أخال الكشفة ستحمدها

عليها!!!

والتفت الرئيس إلى تشوكونوف قائلاً:

— أتعترف بما جاء في التقرير؟ فقال تشوكونوف:

— بماذا تريدون أن أعترف ؟

— بما قرئ الآن ! هل جرى ماذكر على الصورة المينة ؟

— أجل! على هذه الصورة تماما !!

— إذن أنت ساعدتها على اجتياز الساقية ، وحملت لها جزدانها ؟؟

— وحقيبتها أيضاً ؟

— وأنشدتها أبيتا لست أدري لمن ؟

فأجاب تشوكونوف وقد احمرت وجنتاه : هذا أمر لا يعني أحداً غيرى !

— كلا ! بل هذا امر يخص غيرك أيضاً ، لأنه يمس كرامة الفرقة بأسرها... فإذا كنت

تقرض الشعر ، ولا تنشده للفرقة ، بل تنشده «لسيدتك» فهذا أمر ياصديقي لا يخصك وحدك..

إذ لو شرعنا جميعاً ننظم الشعر ، وننتزع اللففات التي تقع إلى الارض (وهذا ما فعلته انت)

لا نكون أعددنا للمستقبل الفرقة العسكرية ، التي نريدها للقيام بالثورة ، وإعلان مبادئها...

ليس هذا امرأ يعينك وحدك ، لأنك تسد أخلاق رفيقة لنا !!!

علينا أن نعد للغد : جنودا بوسائل ، مدرين ، متساوين في الحقوق ، أما انت فانك

تحمل لها حقيبتها ، بدلا من أن تحملها هي بنفسها ! وتساعدها على عبور الساقية ، وتنشدها

الاشعار ... حتى أنا منذ زمن غير يسير ؛ صرنا نسمع اناس يتسارون بقولهم : تمكن أبناء

صغار التجار من الانخراط في سلك الكشافة !!!

فصرخ تشوكونوف وقد أحفظته تلك الوصمة الشائنة : لست ابن تاجر صغير ! فأني عامل

ميكانيكى !!!

وراح الرئيس يمرر يده على شعره ، وهو يتفكر في وجه تشوكونوف ؛ وبعد لآي

ابتدريه قائلا :

— وهذا ما يزيد عملك فساداً على فساد ، وعاراً على عار ... وبدلاً من أن تسعى لتبرير

موقفك ، قدمت لنا حجة جديدة ، عليك... لأنك ابن عامل ميكانيكى شريف «يحب» إحدى

رفيقاته في الفرقة ؟؟؟

لئن كنت تريدها لاشباع شهواتك البهيمية ، فقد كان حقاً عليك أن تصرح لها بذلك ،

بطريقة شريفة كرفيق لها ، لا أن تسعى لاغوائها برفع لفتتها الساقطة ، وحمل حقيبتها عنها ... !!

قال تشوكونوف ، وقد ألهب الغيظ جسمه : لست اريدها لاشباع مطامعي الجسدية ! ولئن

رضيت كل شيء ، فاني لا أرضى ، ولا أرضى ، ولا أسمح لأحد أن يهين ...

فقاطعه أحد الحلفين بقوله :

- إذن كنت تريدها ، من أجل أى شيء ؟
 - من أجل أى شيء ؟! وهل أعرف أنا ذلك ؟ لا أريدها لشيء ... بل لأتحدث معها ...
 - ولأجل ذلك هجرت جميع الرفاق ، ورحت تبغى الانفراد عنهم ؟
 - انى لم انفرد عن الرفاق ، وانما أرغب أن أكون معها وحدى .
 - بإمكانك ان تختلى بها لاشباع شهواتك البشرية ، فان هذا أمر يعنيك وحدك ، لأنك لا تقطعها من الفرقة على هذه الصورة ، ولكنك رحت تنمى فيها ميل ...
 فأجاب تشوكونوف باحمرار زائد : ولكن .. إذا رغبت فى اطلاقى على دخيلة امرها ، وبئى شكواها ... وإذا كانت تترتاح إلى فتح قلبها لى ؟
 - ماذا ! هل أصبحت مستودعا للأسرار ؟

- كلا لست مستودعا للأسرار ، ولكن ماريا يسرها أن تكشفنى بمكنونات صدرها ، وأنا لا أستطيع إلا أن اجنح لذلك بشيء من الشفقة والتأثر ، ومنذ ذلك الوقت ...
 - الصديقة المخلصة ، لا تتبأكى امام احد ، وإذا كان ماتتدمر منه يستحق الذكر ، فعليها أن تسره إلى الفرقة .. أوليس يجمل بكما أن يكون أحدهما كزوج للآخر ؟ اذ لو أجز ذلك ، فإى ضرورة تبقى لتأليف الفرق ... اذهبوا اذن جميعكم وابحثوا لكم عن « حبيبات »
 وهنا ضحك الجميع !

- ايها الرفاق ! الوقائع واضحة جلية ، لا إيهام فيها ! والتهمة ثبتت أدق دقائقها : إن الرفيق تشوكونوف يتكلم بلسان لانعرفه ، ولهذا يتنذر علينا أن نتفاهم معه ، ان لم يك هذا التفاهم مستحيلا ! ومما يزيدنا أسفا أيها الرفاق أنه مثلنا ، ابن عامل ، وانه فى الوقت ذاته ، عنصر من العناصر العاملة لافساد الاخلاق ، بينا الواجب يحتم عليه ، ان يكون مقاتلا ، وعضواً عاملاً ، ومثالا يحتذى فى الفرقة ؛ والآن أطرح عليكم الأسئلة الاربعة التالية :
 ١ - هل ثبت لكم ، ان الكشاف تشوكونوف (من الفرقة الثانية) أفسد أخلاق رفيقته ماريا إفساداً تاماً ؟

٢ - هل ترتأون طرده من فرقة الكشافين ؟

٣ - هل تعد ماريا كولوييف شريكته فى الجرم ؟

٤ - هل تستحسنون طردها أيضاً ؟

عندئذ تفرقت الاصوات وتوزعت ... إلا أن الأ كثرية أجمعت على طلب التشديد فى الحكم ، لردع المفسدين عن أعمالهم وقمع الفساد ، وإلا فانهم بدلا من أن يكونوا أعدوا جنودا بوسائل لاعلان الثورة وتنشيطها ، يكونون أعدوا أزواجاً يتراسلون بالمقطوعات الشعرية المذبذبة ، ويتجاذبون أطراف الأحاديث الشهية ، وهكذا فان « الحب » يصير أشبه شيء (بالدين) أى أنه يصبح آلة قوية

لاضعاف العقل، وتثبيط الهمم، وإشغال الرفاق عن الثورة التي انضروا تحت لوائها... يحق لأحرار أبناء نيجان أن يفكروا في الحب، وأن يقرضوا الشعر! أما نحن فلا، لأن حاجتنا الطبيعية تكفيها! ولا شباعها لا نذهب إلى بائعات اللذة، ولا نرتجى في أحضان بنات الهوى، لأن لنا رفيقات!!!

وأجابت الاقلية، بأنهم إذا أخذوا بهذه الآراء، استأصلوا العواطف البشرية من شأفتها؛ وقضوا عليها القضاء المبرم، وزاد بعضهم على ذلك، أن لهم نفوسا، تتطلب... وإذا بأصوات الهزء والسخرية ترتفع وترتفع عاليا ومن بينها صوت يقول:
— أسمعهم يتحدثون عن النفس البشرية الآن!!! إنه لموضوع جليل! يالهم من أناس! قل لي أي «مشكا» هل لك أنت تقسى؟

قال مشكا: إن نفوسهم لتتطلب الشعر!!
— يالهم من صعاليك، يالهم من «أوباش»!!
— خبر لنا الف مرة أن نكون «أوباشا» من أن نكون عشاقا مدلهين!
فاتهرهم الرئيس بإشارة من يده قائلا: سكوتا أيها الرفاق! وبعد أن انحنى إلى رفيقه الجالس إلى يمينه لسمع ما كان يسره إليه من بعض القول، زاد على ماتقدم:
فلنصوت بهدوء ونظام!

فأجابت الاكثرية على السؤال الاول بالايجاب، وعارضت أقلية ضئيلة قضية الطرد.. وأما إجرام ماريا فقد أيدته الاغلبية... ولكن الاصوات أجمعت على إبقائها في الفرقة (!) على شريطة أن لا تدنس في المستقبل راية الكشافة!!!
فترع تشوكونوف عقدة رقبته (كرافته) الحمراء، وهي علامة الكشافين ثم وضعها على الطاولة، وخرج من القاعة، وسترته ملقاة على أكتافه، فنهض على الأثر عشرة كشافين من مقاعدهم، وصرخوا في وجه الحضور: «يالكم من أنذال! يالكم من أوباش!» وأسرعوا في الالتحاق بتشوكونوف.

وأخذ الرئيس عقدة الرقبة الحمراء، ورمى بها في علبة الاقذار ثم قال:

— لقد ذهبوا فالي حيث...

أيزاك موسى شמוש

حلب